تفسير سورة الكهف

فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ

الجزء السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى -في هذه السورة الكريمة سورة الكهف:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ ﴿٥٤﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: أنَّ الكافرينَ لَمَّا افتخَروا على فُقَراءِ المسلمينَ بكثرةِ أموالِهم وأتباعِهم، وبيَّن تعالى بالوجوهِ الكثيرةِ أنَّ قولَهم فاسِدٌ، وشُبهَتَهم باطِلةٌ، وذكر فيه المثَلينِ المتقدِّمين، قال بعدَه: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ) [الكهف: 54]، وهو إشارةٌ إلى ما سبق.

■قالت الحكماء: إنما شبه تعالى الدنيا بالماء ... لأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة، كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى، ويذهب، كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل، كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعا منبتا، وإذا جاوز المقدار كان ضارا مهلكا، وكذلك الدنيا: الكفاف منها ينفع، وفضولها يضر. القرطبي (289/13)

قال تعالى {وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا}

⇦فعلمنا من القرآن أن الدنيا وما فيها هشيماً: يابساً متكسراً. تذروه: تنسفه الرياح إلى كل جهة. وعلمنا أيضاً أن الباقيات الصالحات: الأعمال الصالحة. وخيرٌ أملاً: خير ما يُرجى عند الله. والعبد له إرادة مخير بين الفاني وبين الباقي، وهذا مثل متكرر في القرآن فهل من مدكر، هل من متعظ صاحب عقل رشد، فالحياة الدنيا سراب وهم زائلة، مليئة بالفتن وعلى رأسها المال، والأولاد، والأعمال الصالحة هي السبيل للنجاة من هذه الفتن، بل هي طريق الجنة الموصلة إلى رضى الله.

لماذا سمّى القرآن بهذا الاسم؟ القرآن في اللغة العربية من القَرْء وهو الجمع والضمّ سمي بذلك لأنّه جمع السور بعضها إلى بعض وقيل لأنّه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلّة كلها، وقيل لأنه جمع أنواع العلوم كلها. (الإتقان للسيوطي 162/1 - 163)

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ) يخبِرُ الله تعالى عن عَظَمةِ القرآنِ، وجلالتِه، وعُمومِه، وأنَّه صَرَّف فيه مِن كُلِّ مَثَلٍ، أي: من كلِّ طريقٍ مُوصِلٍ إلى العلومِ النَّافعةِ، والسَّعادةِ الأبَديَّةِ، وكلِّ طريقٍ يَعصِمُ مِن الشَّرِّ والهلاكِ؛ ففيه أمثالُ الحلالِ والحرامِ، وجزاءُ الأعمالِ، والترغيبُ والترهيبُ، والأخبارُ الصَّادقةُ النافعةُ

للقُلوبِ؛ اعتقادًا، وطُمأنينةً، ونورًا، وهذا مما يوجِبُ التَّسليمَ لهذا القرآنِ وتلقِّيَه بالانقيادِ والطاعةِ، وعدمَ المنازعةِ له في أمرٍ مِن الأمورِ، ومع ذلك كان كثيرٌ مِن النَّاسِ يجادِلونَ في الحَقِّ بعد ما تبيَّن، ويجادِلونَ بالباطِلِ. السعدي

قال ابن كثير: يَقُولُ تَعَالَى: وَلَقَدْ بَيَّنَّا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ، وَوَضَّحْنَا لَهُمُ الْأُمُورَ، وَفَصَّلْنَاهَا، كَيْلَا يَضِلُّوا عَنِ الْحَقِّ، وَيَخْرُجُوا عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى، وَمَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذَا الْفُرْقَانِ، الْإِنْسَانُ كَثِيرُ الْمُجَادَلَةِ وَالْمُخَاصَمَةِ وَالْمُعَارَضَةِ لِلْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، إِلَّا مَنْ هَدَى اللَّهُ وَبَصَّرَهُ لِطَرِيقِ النَّجَاةِ.

كقوله تعالى (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) (41) الإسراء.

(وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) أي: مجادلةً ومُنازعةً فيه، مع أنَّ ذلك غيرُ لائقٍ بهم، ولا عَدلٌ منهم، والذي أوجب له ذلك وعدمَ الإيمانِ باللهِ إنَّما هو الظُّلمُ والعِنادُ، لا لقُصورٍ في بيانِه وحُجَّتِه وبُرهانِه، وإلَّا فلو جاءهم العذابُ، وجاءهم ما جاء قَبلَهم؛ لم تكُنْ هذه حالَهم. السعدي

قال الطبري: وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَر شَيْء مِرَاء وَخُصُومَة، لَا يُنِيب لِحَقٍّ، وَلَا يَنْزَجِر لِمَوْعِظَةٍ.

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ) (77) يس.

الجدال ينقسم إلى قسمين:

1. الجدال المحمود: وهو الذي يكون الغرض منه تقرير الحقّ، وإظهاره بإقامة الأدلة والبراهين على صدقه.
2. الجدال المذموم: هو الجدال الذي يكون غرضه تقرير الباطل بعد ظهور الحقّ، وطلب المال والجاه.

❁لا يفسد صفاء التفكر في آيات القرآن مثل: (الجدل) ولا يبعثه مثل(العمل)، إن سمعت خيرا فامتثل؛ وإن كان شرا فأعرض؛ لا يحرمك منهما مثل (الجدل) . عقيل الشمري

قال تعالى (قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ) (126) طه

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ) (175) الأعراف

قال السعدي: انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله، فإن العلم بذلك، يصير صاحبه متصفا بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويرقى إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات، فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس. فلما انسلخ منها أتبعه الشيطان، أي: تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين، وصار إلى أسفل سافلين، فأزه إلى المعاصي أزا. فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ بعد أن كان من الراشدين المرشدين.

قال ابن القيم:" ليس لشفاء القُلوب دَواء قَط أنفَع مِنْ القُرآن ".

قال تعالى (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) (32) فاطر

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ) يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَمَرُّدِ الْكَفَرَةِ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِالْحَقِّ الْبَيِّنِ الظَّاهِرِ مَعَ مَا يُشَاهِدُونَ مِنَ الْآيَاتِ [وَالْآثَارِ]، وَالدَّلَالَاتِ الْوَاضِحَاتِ، وَأَنَّهُ مَا

مَنَعَهُمْ مِنَ اتِّبَاعِ ذَلِكَ إِلَّا طَلَبُهُمْ أَنْ يُشَاهِدُوا الْعَذَابَ الَّذِي وُعِدُوا بِهِ عَيَانًا، كَمَا قَالَ أُولَئِكَ لِنَبِيِّهِمْ:﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشُّعَرَاءِ:١٨٧]،وَقَالَتْ قُرَيْشٌ: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الْأَنْفَالِ:٣٢]ابن كثير.

(وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) (16) ص.

قال السعدي: ما منع الناس من الإيمان، والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق، بين الهدى والضلال، والحق والباطل، قد وصل إليهم، وقامت عليهم حجة الله، فلم يمنعهم عدم البيان، بل منعهم الظلم والعدوان، عن الإيمان.

(وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ) من الذنوب والآثام.

(إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) مِنْ غِشْيَانِهِمْ بِالْعَذَابِ وَأَخْذِهِمْ عَنْ آخِرِهِم. ابن كثير.

(أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً) يَرَوْنَهُ عَيَانًا مُوَاجَهَةً [وَمُقَابَلَةً]. ابن كثير

قال السعدي: فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله، وعادته في الأولين من أنهم إذا لم يؤمنوا، عوجلوا بالعذاب، أو يرون العذاب قد أقبل عليهم، ورأوه مقابلة ومعاينة، أي: فليخافوا من ذلك، وليتوبوا من كفرهم، قبل أن يكون العذاب الذي لا مرد له.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) أي: وما نُرسِلُ الرُّسُلَ إلَّا لِيُبَشِّروا المؤمِنينَ بالثَّوابِ العاجِلِ والآجِلِ، ويُنذِروا الكافِرينَ بالعِقابِ العاجِلِ والآجِلِ، ولم نُرسِلْهم عَبَثًا، ولا لِيَتَّخِذَهم النَّاسُ أربابًا، ولا لِيَدْعوا إلى أنفُسِهم، ولا لِيَجبُروا النَّاسَ على الإيمانِ، ولا لِيُجيبوا أقوامَهم إلى طَلَبِ الآياتِ المقتَرَحةِ أو إتيانِهم بالعَذابِ والهَلاكِ؛ فليس لهم ذلك ولا هو مِن مَهامِّهم. موسوعة التفسير

قال ابن كثير: قَبْلَ الْعَذَابِ مُبَشِّرِينَ مَنْ صَدَّقَهُمْ وَآمَنَ بِهِمْ، وَمُنْذِرِينَ مَنْ كَذَّبَهُمْ وَخَالَفَهُمْ.

والرسول: من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه. التبشير: الإخبار بما يسر. الإنذار: الإعلام المقرون بتخويف.

(وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) لَسْنا نَبعَثُ رُسُلَنا للجِدالِ والخُصُوماتِ، وإنَّما نَبعَثُهم مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ، ولكِنَّ الكُفَّارَ يُخاصِمونَ رُسُلَهم بالباطِلِ؛ لِيُزيلوا ويُبطِلوا بِجدالِهم الحقَّ الذي جاءَت به الرُّسُلُ. ابن عثيمين

مع وضوح الحق بإرسال الرسل والكتب، يجادل الكفار بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه.

﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ أَيْ: لِيُضْعِفُوا بِهِ. ابن كثير

(وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) كما قال تعالى (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18) الأنبياء.

قال ابن عثيمين: فكلُّ إنسانٍ يُجادِلُ مِن أجلِ أن يُدحِضَ الحقَّ، فله نصيبٌ من هذه الآيةِ أي: مِن الكُفرِ -والعياذُ باللهُ- لأنَّ الكافرينَ هم الذين يُجادِلونَ بالباطِلِ؛ ليُدحِضوا به الحقَّ.

(وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا) أي: وجعَل الكُفَّارُ حُجَجي وبَراهيني، وما أيَّدتُ به رُسُلي من المعجِزاتِ، وما خُوِّفوا به مِن العذابِ، موضعَ سخريةٍ واستخفافٍ واستهزاءٍ. موسوعة التفسير

قال ابن كثير: اتَّخَذُوا الْحُجَجَ وَالْبَرَاهِينَ وَخَوَارِقَ الْعَادَاتِ الَّتِي بُعِثَ بِهَا الرُّسُلُ وَمَا أَنْذَرُوهُمْ وَخَوَّفُوهُمْ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ، سَخِرُوا مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ أَشَدُّ التَّكْذِيبِ.

كما قال تعالى (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) هود وقال تعالى (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (10) الأنعام.

أكثر الناس أعرضوا ولم يؤمنوا برسلهم، كما قال تعالى (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) (40) هود.

وقالَ ﷺ: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النبيُّ والنبيَّانِ يَمُرُّونَ معهُمُ الرَّهْطُ، والنبيُّ ليسَ معهُ أحَدٌ) صحيح بخاري.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا) يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلماً ولا أكبر جرماً، من عبد ذُكّر بآيات الله وبُيّن له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وخوف ورهب ورغب، فأعرض عنها، فلم يتذكر بما ذُكّر به، ولم يرجع عما كان عليه. السعدي

قال ابن كثير: وَأَيُّ عِبَادِ اللَّهِ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ اللَّهِ فأعرض عنها، أي: تناساها وأعرض عَنْهَا، وَلَمْ يَصْغَ لَهَا، وَلَا أَلْقَى إِلَيْهَا بَالًا.

يشيرُ معنى الإعراض في اللغة إلى الصد، وأعرضَ عنه صدَّ عنه، وأعرض عن الشيء بمعنى ولّاه ظهره، وقد ذُكر معنى الإعراض في أكثر من خمسين موضعًا في كتاب الله تعالى، وقد ذكرَ ابن القيم -رحمه الله- أنَّ الإعراض أحد نواقض الإسلام، لأنَّ الإعراض عن الإسلام هو رفضه وعدم قبوله وإنكار ما جاء به، قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا}، أي إنَّ أظلم الناس هو الذي تُعرَضُ عليه آيات الله وما فيها من أحكام فيُعرِض عنها وينكرها ولا يؤمنُ بها.

والإعراض يقع من الكافر وقد يقع من المؤمن، فإعراض الكفار بعدم القبول، وإعراض أهل الإيمان بعدم العمل بما جاء في آيات الله.

معنى الإعراض: عدم الاستماع لأوامر الله عز وجل، وعدم المبالاة بها أو التفكر فيها وهو الغالب.

قال سليمان اللهيميد: نتائج الإعراض:

أولاً: أن صاحبه من أعظم الناس ظلماً.

قال تعالى:(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) [السجدة: 22].

ثانياً: جعل الأكنة على القلوب حتى لا تفقه.

قال تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا...) [57الكهف].

ثالثاً: انتقام الله.

قال تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ) [22: السجدة].

رابعاً: كون المعرض كالحمار.

قال تعالى (فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (49) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ) (٥٠) [المدثر ٤٩-٥١].

خامساً: الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود.

قال تعالى (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) (13) فصلت

سادساً: المعيشة الضنك.

قال تعالى (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ) (124) طه

سابعاً: سلكه العذاب الصعد.

كما قال تعالى (وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) (17) الجن

✉ولا يغني الاستماع إلى الآيات عن إنصات القلب والعقل لها، فإذا لم يفقه الإنسان كلام الله تعالى ويتدبره فلن يغنيَ عنه ذلك شيئًا مهما استمع إليه بأذنيه ونظر إليه بعينيه، فيجبُ على الإنسان أن يُقبلَ على كلام الله بكليَّته قبل أن يقتصر ذلك على الاستماع إليه، فالتأمل والتدبر والتفكر من الأشياء الواجبة عند الاستماع إلى آيات كتاب الله، فيفهم الآيات ويأخذ ما جاء فيها من أحكام وتشريعات لكي يعمل فيها.

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ)

(وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) مِنَ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ وَالْأَفْعَالِ الْقَبِيحَةِ. ابن كثير

📋**قال السعدي:** ونسى ما قدمت يداه من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب، فهذا أعظم ظلما من المعرض الذي لم تأته آيات الله ولم يذكر بها، وإن كان ظالما، فإنه أخف ظلما من هذا، لكون العاصي على بصيرة وعلم، أعظم ممن ليس كذلك.

(إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ) ولكن الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه لذنوبه، ورضاه لنفسه، حالة الشر مع علمه بها، أن سد عليه أبواب الهداية بأن جعل على قلبه أكنة، أي: أغطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعتها، فليس في إمكانها الفقه الذي يصل إلى القلب. السعدي

(أَكِنَّةً) أَغْطِيَةً وَغِشَاوَةً. ابن كثير

(أَنْ يَفْقَهُوهُ) لِئَلَّا يَفْهَمُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْبَيَانَ. ابن كثير

(وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) أَيْ: صَمَمٌ مَعْنَوِيٌّ عَنِ الرَّشَادِ. ابن كثير

قال السعدي:(وَقْرًا) صمما يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع وإذا كانوا بهذه الحالة، فليس لهدايتهم سبيل.

(وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا) لأن الذي يرجى أن يجيب الداعي للهدى من ليس عالما، وأما هؤلاء، الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق فتركوه، وطريق الضلال فسلكوه، وعاقبهم الله بإقفال القلوب والطبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق وفي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه، أن يحال بينهم وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك، ما هو أعظم مرهب وزاجر عن ذلك. السعدي

قال سليمان اللهيميد: وإن دعوتهم إلى الإيمان والقرآن فلن يستجيبوا لك أبداً لأنهم لا يفقهون ولا يسمعون، فللهدى قلوبٌ متفتحة مستعدة لقبول الإيمان وهؤلاء كالأنعام.

وقفة مع آية:(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) وبمعنى المخالفة من أقسط وأعدل ممن علم الحق وانقاد له مثال السحرة،هؤلاء السحرة عاشوا طوال عمرهم على الكفر والضلال وأذى الخلق، ومع ذلك لما تبين لهم الحق جهروا به أمام واحد من أفجر خلق الله وأشدهم ظلمًا وجورًا وطغيانًا، وهو فرعون، ولم يتعللوا بعلل كثيرة من خوف على النفس أو المال أو الجاه، ورغم شدة التخويف الذي توعدهم به فرعون (فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ) [طه: من الآية ٧١] لم يرضوا بكتم الإيمان وإيثار التقية، فجاء ردهم ثابتا قويا قاطعا لا مجال فيه لتردد أو تذبذب (قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) [طه:72-73].

بعدما أخبرنا الله عن إيمان سحرة فرعون، ويقينهم بالله، وثقتهم في موعوده، وثباتهم على الحق، وتضحيتهم بالمال والجاه والنفس، وصبرهم على القتل والصلب ما حجة المعرضين عن الحق من المسلمين بعد علمهم وإقامه الحجة عليهم لماذا لا يعتبروا بقصتهم كيف كانوا في أول النهار سحرة كفارًا فجرة علموا الحق وتبين لهم صاروا في آخره مؤمنين شهداء بررة.

ثم نجد على النقيض من ذلك المسلمين لعشرات السنين ينصرون الباطل ويروجون له، أو في أحسن الأحوال يسكتون عن إنكاره والبراءة منه، وهم على خطر عظيم، يعلمون الحق ويعرضون عنه...

وتأملوا قوله –تبارك وتعالى–:(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)، والمعنى أنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة وأبطأتم فلا تأمنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكم فلا يمكّنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم على تركها بعد وضوح الحق واستبانته، وبعد أن طرقت الفرصة بابكم فأدرتكم إليها ظهوركم، قد يعقبه العقوبة بأن يحول الله –تبارك وتعالى– بين العبد وقلبه فلا يملك قلبه، ومن ثَمّ فإنه قد يحاول الاستجابة ولا يستطيع، قد يحاول التوبة ولا يستطيع كما قال تعالى(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ)الأنعام:110

ينبغي للمؤمن أن يفتح حواسه، فيكون في حال من الاستجابة ظاهراً وباطناً لأمر الله –تبارك وتعالى– حينما يأمره، ويفرح حينما تساق له ألطاف الله –عز وجل– فيظهر له الحق فيلزمه، ويظهر له الباطل فيتركه، عندها لا يكون من المعرضين.

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ) رَبُّكَ –يَا مُحَمَّدُ–غَفُورٌ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ. ابن كثير

كما قال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) (156) الأعراف، وقال تعالى (إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ) (32) النجم.

وقال ﷺ "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهو مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ" صحيح بخاري

إن ارتكبنا ذنباً فلا يجب أن نتردد في طرق باب الله، معتذرين فالكريم لايرد من وقف ببابه، وهو وحده من يعلم ضعفك فيرحمه.

(لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ) كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فَاطِرٍ:٤٥]، وَقَالَ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرَّعْدِ:٦]. وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَحْلُمُ وَيَسْتُرُ وَيَغْفِرُ، وَرُبَّمَا هَدَى بَعْضَهُمْ مِنَ الْغَيِّ إِلَى الرَّشَادِ، وَمَنِ اسْتَمَرَّ مِنْهُمْ فَلَهُ يَوْمٌ يَشِيبُ فِيهِ الْوَلِيدُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا. ابن كثير

قال السعدي: ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر الذنوب، ويتوب الله على من يتوب، فيتغمده برحمته، ويشمله بإحسانه، وأنه لو آخذ العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب، لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل، والذنوب لا بد من وقوع آثارها، وإن تأخرت عنها مدة طويلة، ولهذا قال

(بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا) أي: لهم موعد، يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ، ولا محيد عنه، وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنابوا، غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا، فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعدا لهم، أنزل بهم بأسه. السعدي

(لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا) لَيْسَ لَهُمْ عَنْهُ مَحِيدٌ وَلَا مَحِيصٌ وَلَا مَعْدِلٌ. ابن كثير

(وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾

(وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا) الْأُمَمُ السَّالِفَةُ وَالْقُرُونُ الْخَالِيَةُ أَهْلَكْنَاهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ. ابن كثير

(وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) أَيْ: جَعَلْنَاهُ إِلَى مُدَّةٍ مَعْلُومَةٍ وَوَقْتٍ [مَعْلُومٍ] مُعَيَّنٍ، لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، أَيْ: وَكَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ، احْذَرُوا أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَشْرَفَ رَسُولٍ وَأَعْظَمَ نَبِيٍّ، وَلَسْتُمْ بِأَعَزَّ عَلَيْنَا مِنْهُمْ، فَخَافُوا عَذَابِي وَنُذُرِ. ابن كثير

رب العالمين يعطي فرص للظالم حتى يراجع نفسه وتصرفاته لكن إن أصر على ظلمه فإن هلاكه سيكون محققا، نعوذ بالله من أن نَظلم أو نُظلم.

الظلم هلاك للنفس إن صدر من الفرد، وخراب للديار إن صدر من أمة فما من شيء يزيل النعم ويعجل بالنقم كظلم.

لا يستبعدنّ الظالم موعد هلاكه مهما طال فـ (الله) لا يخلف الميعاد! ثِقْ في الوعد...ولا تسأل عن الموعد!

أولاً: أخبر الله أنه أهلك كثيراً من القرى.

قال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17) الإسراء.

ثانياً: أخبر الله أن هلاك القرى والأمم بسبب ذنوبهم وكفرهم.

قال تعالى (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ). وقال تعالى (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (59) الكهف.

ثالثاً: أن الله لا يهلك القرى حتى يرسل إليهم الرسل. قال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً) (15) الإسراء وقال تعالى (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا)(59) العنكبوت.

رابعاً: أخبر تعالى أن أهل الترف والغنى هم من يكذب بالرسول من القرى.

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) (34) سبأ.

خامساً: أن الله يقص خبر الأمم السابقة للعبرة والاتعاظ.

قال تعالى (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (46) الحج

ومن القرى التي أهلكها الله قرى عاد سجل القرآن الكريم وصفا لقوم عاد دقيقا للغاية حتى ينتبه من يأتي بعدهم ويتعظ ويكون قوم عاد عظة في القصص القرآني، بعث الله جل شأنه نبيه هود عليه السلام، ليرشدهم إلى الطريق المستقيم، إذ كان قوم عاد يعبدون التماثيل التي ينحتونها، ويشركون بالله شركاً عظيماً، فقد جعلوا هذه التماثيل إلها مع الله جل وعلا، وفي هذا كان ضلالهم في العقول وضلال في القلوب.

وكان قوم عاد أعظم أهل زمانهم في قوة الأجسام والطول والشدة حيث كانوا عمالقة أقوياء إلى الدرجة التي قالوا فيها كما ذكر الله عنهم في سورة فصلت قال الله في بيان ذلك: (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً)،ومن صفات قوم عاد التفاخر والتباهي بقوتهم وتعاظمهم على باقي خلق الله ممن حولهم من القبائل وقد قال الله تعالى فيها: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ*إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ*الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)، لما كذّب قوم عاد رسولهم وسخروا منه ورفضوا الإذعان لدعوة الله تعالى والخضوع له كما أخبر سبحانه

في القرآن الكريم: (وتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)، فأعرضوا فاستحقوا العذاب كما أخبر القرآن بالرّيح التي أرسلها الله عز وجل عليهم، حيث أمسك الله تعالى المطر عنهم فترة من الزمن حتّى أجدبت أرضهم وصاروا ينتظرون المطر ويترقّبونه، ورسولهم يحذرهم ويقل لهم هذا من عذاب الله ،ارجعوا للحق ،لكنهم استكبروا وابوا، حينها ساق الله إليهم سحابةً أخذت بالاقتراب منهم، فلما رأوها ظنّوا أنّ المطر قد أقبل، وفرحوا واستبشروا بذلك حتّى إنّهم قالوا: (هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا)، إلا أن الله تعالى وضّح أن تلك السحابة لم تكن مطراً كما ظنوا وإنما عذاباً من عنده، وذلك في قوله تعالى: (بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)، ونزلت بهم تلك الريح فعلاً، فسلّطها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوماً، فلم تنقطع عنهم لحظةً أبداً، وكانت كلها ريحاً عقيماً ليس فيها شيء من الخير أو البركة، بل كانت شديدة البرودة، وكان صوتها مفزعاً مرعباً، قد وصفها الله تعالى قائلاً: (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا)، ووصفها أيضاً بقوله: (مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ)، فكانت نتائج هذه الريح وذلك العذاب شديدةً وخيمةً على قوم عاد؛ حيث أهلكت كلّ شيء، وكانت تحمل الرجل منهم عالياً ثم تُنكّسه على رأسه فينقطع عن جسده، حتّى أصبحوا كما وصفهم الله تعالى: (فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)، وهكذا بادوا وقُتِلوا جميعاً، فلم يبقَ منهم أحد، وأصبحت مساكنهم خاويةً، لا يُرى من أثرهم غيرها، قال تعالى: (فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلا مَسَاكِنُهُمْ)، ثمّ أُتبِعوا في الدنيا لعنةً وفي الآخرة لعنةً، وكانوا عبرةً لمن يعتبر بعدهم.

سادساً: أخبر تعالى لو أن أهل القرى آمنوا لكان خيراً لهم.

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ...) (96) الأعراف.

إنّ دعوة يونس –عليه السلام– لقومه استمرت ثلاثاً وثلاثين سنة، إلّا أنّه لم يؤمن معه سوى رجلين، ولذلك شعر يونس –عليه السلام– باليأس من قومه، فتركهم وخرج من بلدتهم، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجوا إلى الله أربعين ليلة، فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم.

(فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) (98) يونس

يجب أن نطرح بين يدي ربنا متذللين أن يُصلح الله أقوالنا وأعمالنا، وسريرتنا، وأن يجعل سريرتنا خيرًا من علانيتنا، فالرب كريم، وخيره عميم، وَجوده عظيم، ولنتذكر عندما نعرض عن الحق بعد علمه، لحظة المحاسبة والسؤال، فماذا سنقول لرب العالمين قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما منكم من أحدٍ إلا سيُكلِّمُه ربُّهُ، ليس بينَه وبينَه تُرجمانٌ، ولا حجابٌ يحجبُه» (البخاري:7443). والتفكر في هذا الموقف العظيم كفيل في ردع العبد عن معاصيه، وحمله على الانقياد للحق والسمع والطاعة، بل مدعاة لأن يُحسِن كل عبدٍ سريرته ويُصلِح خلوته.

نعود أنفسنا على تعجيل بالتوبة؛ فإما توبة فور المعصية، وإما فضيحة الدنيا قبل الآخرة! لسان حالنا بين يدي ربنا: قطعنا الذنب ووصلناك، وخاصمنا الشيطان وجئناك، وعصينا هوانا في سبيل رضاك، فإن ذقت حلاوة الوصال بعد الفراق فَزِدْ، وإن لم تجرِّب هذا الزاد فجرّبه.

من داوم على قراءة القرآن، عرف الله بأسماءه وصفاته، وعرف لله قدْرَه، وملأ قلبه بتعظيم ربه، فلن يعص الله في سره أو جهره؛ لأن تعظيم الله يورث الحياء منه، كيف يذكر بآيات الله فيعرض عنها، أو أن يحلل الحرام أو يحرم الحلال، أو أن يتجاهل أحكام الله لا يمكنه ذلك، كما قال الإمام محمد بن نصر: "إذا ثبت تعظيم الله في قلب العبد أورثه الحياء من الله والهيبة له، فغلب على قلبه ذكر اطلاع الله العظيم ونظره بعظمته وجلاله إلى ما في قلبه وجوارحه. وذَكَر المقام غدا بين يديه. وسؤاله إياه عن جميع أعمال قلبه وجوارحه. وذكر دوام إحسانه إليه. وقلة الشكر منه لربه. فإذا غلب ذكر هذه الأُمور على قلبه هاج منه الحياء من الله، فاستحى من الله أن يطلع على قلبه وهو معتقد لشيء مما يكره، أو على جارحة من جوارحه يتحرك بما يكره، فطهَّر قلبه من كل معصية، ومنع جوارحه من جميع معاصيه".